الشعر العراقي الحديث في مراحله الثلاث

بقلم الدكتور جلال الخياط

اختلف الكتاب في تحديد مفهوم كلمة « حديث » بالنسبة الى الشعر العراقي ، فمنهم من اعتبر شعر القرن التاسع عشر حديثا ! ومنهم من ذهب الى ان شعراء مطالع القرن العشرين محدثون ، ومنهم من أكد على ان الشعر الحديث هو الذي نظم بطريقة جديدة مبتكرة في السنوات القليلة الماضية ، ومنهم من يرفض هذا الاصطلاح ويميل الى كلمة جديد او معاصر ويرى ان قصيدة نظمت في زمن سابق أجدر بالحداثة مما ينظم الان ، ويحدد هذا البحث كلمة « حديث » بالمرحلة الثالثة من تطور الشعر العراقي ، وتبدأ بنهاية الحرب العالمية الثانية حتى يومنا هذا ، وهذا التحديد لكلمة « حديث » زمني لا يهتم بالشكل والمضمون ، فأية قصيدة تنظم في الوقت الحاضر وان أوغلت في التقليد وافتقدت الاصالة والابداع فهي قصيدة حديثة الا انها متخلفة . ويبدو ان التحديد الزمني للدراسات الادبية أمر لا نستطيع أن نتجنبه لانه يعيننا على رؤية التيارات الادبية المؤثرة بوضوح ، وقد ذهب الدكتور سهيل ادريس في دراسته للقصة العراقية الحديثة الى تقسيمها مراحل ثلاثا (راجع مجموعة السنة الاولى من الاداب) .

وأعني بالشعر العراقي ـ في هذه الدراسة ـ كل قصيدة نظمها شاعر عراقي باللغة العربية الفصحى سواء أكان داخل العراق أم خارجه ، والبحث في شعر فترة ما لا يعني دراسة الشعراء كلهم ، فهو ليس عملية احصاء للشعراء أو اطراء لمواهبهم وانما يعنى بالتيارات التي سادت أشعارهم ووجهتها .

ولقد تجنبت المصادر الادبية المتنوعة في هذا البحث لئلا تثقله ، فهي كثيرة جدا (ولي في مجلة الاديب دراسة في مصادر الشعر العراقي الحديث ، الجزء ٦ ، ١٩٦٧) ولم أكثر من الابيات الشعرية لسهولة الرجوع اليها في الدواوين .

ولسهولة البحث قسمت الشعر في العراق الى مراحل ثلاث :
١ ـ ذروة التقليد ، منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، ٢ ـ التجديد الموهوم او فترة الانتقال من ذروة التقليد الى محاولات التجديد بعد الحرب العالمية الثانية ، ٣ ـ محاولات التجديد بعد الحرب العالمية الثانية .

المرحلة الاولى ، التقليد :

لا بد لكل جديد من قديم ، ولا بد لكل تجديد من تقليد ، ولا يكتمل التجديد الا اذا بلغ التقليد ذروته ، وكل محاولة في التجديد زائفة مفتعلة بدون هذه الذروة ، فالخطوة الاولى التي ترسي قواعد التجديد وتثبت أركانه تتمثل في اخر مرحلة يبلغها التقليد اذ ينكفىء فيها على ذاته وينهي مصيره بيده فتظهر الحاجة الى التجديد ، وكل جديد سيصبح يوما قديما ، وحين تنشأ تجاريب جديدة يقوم نقاش حولها ، وهذا النقاش ـ وان كان متناقضا أحيانا أو لا مجديا ـ مظهر حيوي لكل حركة تجديدية في عالم الفن .

اذن فمحاولات التجديد التي نراها اليوم في عالم الشعر العربي لا بد لها من تقليد انتهى أمره لتكتمل لها عوامل النضج والنماء ، ولقد حظيت الحركة التجديدية باكثر من ذروة وصل اليها التقليد في الماضي ، فقد شهدت نهايات القرن التاسع عشر امعانا في التقليد الاعمى تعبيرا عن الكسل العقلي واللامسؤولية ، فقد فقدت الاشياء ظلالها وسارت القيم على رأسها وما زالت تتعثر حتى يومنا هذا .

ناء الشعر العربي بعد سقوط بغداد وعبر العصور المتعاقبة بالمحسنات البديعية ، ولم يهتم الشعراء بالمضمون ، وأوغلوا في تقليد النماذج القديمة ، ولم يكن الشعر ـ الا اقله ـ غاية بنفسه بل كان واسطة للحصول على مال أو جاه او شهرة او ازجاء وقت ، وشعراء القرن التاسع عشر الذين يمثلون الرعيل الاخير من شعراء الفترة المظلمة ينضوون جميعا تحت لواء التقليد متأثرين بالثقافة العثمانية ، فالموضوعات الشعرية لم تتغير ولم تزد رواء ، وطريقة تناول الشاعر القديم لهذه الموضوعات طبيعية واكثر أصالة ، ووحدة الموضوع لا وجود لها في اكثر قصائد القرن التاسع عشر لانها افتقدت الاجواء الخاصة ولان تقليد الاقدمين جر الشعراء الى افتتاح القصائد بالغزل والانتقال الى الموضوع المراد بتكلف وثقل ، ولقد اهتم شعراء هذه الفترة بالتزويق اللفظي لان ثقافتهم محدودة وتجاربهم فقيرة وما يبعثهم على نظم الشعر لم يكن له مساس مباشر بمشاعرهم الانسانية الطبيعية والساذجة ايضا بل كان طارئا من خارج كمدح وال كبير لغرض ترفيهي اقتصادي ، ولم يكن شاعر القرن التاسع عشر ليتورع عن ان ينظم الشعر في اي موضوع كان كتفضيل القهوة على الشاي او وصف تلغراف او دجاجة او مخدة ، ولعل الاهمية التاريخية للشعر في القرن التاسع عشر اكثر من أهميته الفنية ، فهو مصدر مهم لدراسة تاريخ ذلك القرن .

وتخلف هذا الشعر يرد الى انه ظاهرة من ظواهر الحياة العامة المتخلفة ، وبالرغم من ذلك فقد فشل في التعبير عن روح العصر ولم ينبع ـ في اكثره ـ من معاناة الشاعر لتجربة خاصة ذات جو مميز ، ولم يمثل الناس او يعبر عنهم ، انما كان يعيش في ظل الولاة والحكام .

لقد بذل شعراء القرن التاسع عشر ما يستطيعون وعرضوا علينا خير طاقاتهم ، وهذا ما توصلوا اليه ، الا ان دراسة الشعر بالنسبة لظروف الفترة خطأ ، فالامور الفنية ليست نسبية ، ولا يمكن ان يقوم هذا كعذر لهم ، فأساليبهم تقليدية وموضوعاتهم مبتذلة ، حتى انهم نظموا أبياتا يمكن ان تقرأ من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . وقد شاعت الاحاجي والالغاز في أشعارهم ، وكذلك التاريخ الشعري والتخميس .

ولو جردنا شعر القرن التاسع عشر من الاسماء والحوادث والسنين وقرأناه على انه شعر القرن السادس عشر او السابع عشر لما شككنا فيه ، وعلى هذا فالاصالة مفقودة فيه وليس له ما يميزه ويطبعه بطابع خاص .

وشعراء هذه المرحلة كثيرون منهم : عبد الغفار الاخرس (ت ١٨٧٤) وله « الطراز الانفس في شعر الاخرس ـ استانبول ١٨٨٦ » وفيه ١٩٧ قصيدة في المديح لغرض التكسب مجموع أبياته ٨٢٣٣ لا نخرج منها الا بان الممدوح كريم وفي شجاع ، ولا عجب فالمديح يشكل اكثرية الشعر في الفترة المظلمة وهو ظاهرة بارزة من ظواهر الشعر في القرن التاسع عشر ، وقد قال الشاعر عن نفسه انه تاجر شعر . ان اسلوب الاخرس موغل في تقليد النماذج السابقة

وقد اكثر من التاريخ الشعري والتخميس والتشطير على عادة العصر ، وغزله تقليدي ، الا اننا يمكن ان نعتبر شعر الاخرس عامة مصدرا تاريخيا واضحا لفترة من القرن التاسع عشر لا نعرف عنها الشيء الكثير ، واذا ما حكمنا على انتاجه بمنظار النقد الحديث وجدناه مجموعة من المقالات والرسائل الخاصة والخطب نظمت شعرا واخضعت للاوزان والقوافي ، لا عمق فيها ولا شعور ، لان الاخرس كاي فرد عاش في اواخر الفترة المظلمة محدود الثقافة والتجارب والطموح .

ومن شعراء هذه المرحلة : موسى الطالقاني (ت ١٨٨٠) وهو اقل شهرة من الاخرس « ديوانه طبع سنة ١٩٥٧ » وفيه ٣٢٤ قصيدة منها ٢٤ قصيدة فقط في المدح ، واكثره صادق ، وقد كتب الشاعر مرة الى احد الحكام قائلا : « لم اتخذ من الشعر صناعة انفقها في سوق مدائح الملوك » ، (ديوان الطالقاني ، تحقيق محمد حسن الطالقاني ، ص ٥٣) . فنحن اذن امام ظاهرة عجيبة في القرن التاسع عشر ، ولعل قلة مدائحه راجعة الى انه كان غنيا ، واظن ان اقلاله من المديح جعله غير مشهور بين شعراء القرن التاسع عشر ، فالشاعر المداح صنيعة الممدوح وذو حظوة عنده وذو سطوة بين الناس ، وبالرغم من ذلك فالطالقاني لم يتخلف عن رفاقه اسلوبا ومعنى ، والغزل من اهم الاغراض التي تناولها الشاعر ، فله ١٧٢ قصيدة غزلية ، اي ان اكثر من ٥٠ ٪ من اشعاره غزل ، واذا قرانا قسما كبيرا من غزله شككنا انه لشاعر من القرن التاسع عشر ، فهو يبدو شعرا ذا روح عباسية ، الا انه كرر المعاني القديمة من ان الحبيبة تحسدها الشمس ويغار منها القمر ، عيونها مراخي ترسل سهاما تفتك بالقلوب ، وان الشاعر لا يذوق طعم النوم ويبقى يرقب النجم ويطول ليله ولا يطلع عليه فجر ولا يزوره طيف الحبيبة الا لماما ، ويعاني من العذول انواعا شتى من الاضطهاد . ان موسى الطالقاني اكثر اخلاصا لنفسه من الشعراء الذين عاصروه ، وهو اكثر براعة في تقليد النماذج القديمة ، وهو من القلة بين الشعراء الذين نظموا بالعامية والفصحى ، ويمكننا ان نعتبر شعره النقطة البعيدة للانطلاق نحو محاولات التجديد في الشعر العراقي والبحث عن نماذج عراقية اصيلة ذات روح جديدة .

ومن شعراء هذه المرحلة : حيدر الحلي (ت ١٨٨٦) ، وابرز ما عند هذا الشاعر الالم ، فهو من الشعراء الشيعة الذين يغلب الحزن على اشعارهم لانهم تألموا للنكبات التي حلت بآل البيت ، وهم يقيمون مشاعر للحزن كل عام في ذكرى مقتل الحسين (رض) . ان مراثي هذا الشاعر في آل البيت تنطق عن اصالة وصدق عميق ، وقد تتخذ احيانا اسلوبا قصصيا فتصف مأساة الحسين (رض) ورهطه حين حاربوا فقتلوا ومنع عنهم الماء . لقد كان الحلي يعشق الحزن ، وان نزوعه للالم ميزه بطابع خاص ، الا انه لم يكن مجيدا في موضوعات الشعر الاخرى او انه لم يهتم بها اهتماما كبيرا وهو يعترف انه لم يكن صادقا في غزله (انظر ديوانه ، تحقيق علي الخاقاني ، ص ٦٣) .

ومن شعراء هذه المرحلة : عبد الغني جميل (ت ١٨٦٣) . ويمكن ان نعتبر هذا الشاعر ظاهرة شاذة بالنسبة لشعراء القرن التاسع عشر ، لان اكثر اشعاره كانت سياسية ، والشعر السياسي معروف في الادب العربي قديما وحديثا الا انه لم يكن واضحا في القرن التاسع عشر لخنوع الشعراء ونفاقهم وجبروت الولاة العثمانيين وقضائهم على كل مناوىء لسياستهم . ولعل لثورة هذا الشاعر ونقمته على العثمانيين اسبابا منها سوء الادارة ومنها انه كان مفتيا في بغداد ايام الوالي علي رضا الذي ارهق الناس بالضرائب واضطهدهم في ارزاقهم ، فحاول الشاعر وفريق من الناس ان ينبهوا الوالي الى ذلك ويطالبوه برعاية الاهلين فكادت تحدث فتنة واضطر الشاعر الى الهرب الى الشام ، فاحرق الوالي بيته واثاثه ومكتبته النفيسة الحاوية على مخطوطات نادرة كثيرة . وبعد مدة عاد الشاعر الى بغداد ورفض جميع العروض المغرية من الوالي للسير في ركاب الدولة العثمانية وبقي يدافع عن حقوق الاهلين باشعاره الثائرة طيلة حياته مطالبا العرب ان يعيدوا مجدهم الغابر ، ولم ينظم هذا الشاعر في غير السياسة ومهاجمة العثمانيين والشكوى من الزمن ، وبهذا يكون الشاعر الوحيد في القرن التاسع عشر الذي انفرد بموضوع واحد في شعره تقريبا ، ولما وصلنا من شعر عبد الغني جميل اهمية سياسية واجتماعية اكثر من اهميته الفنية ، فهو من المصادر الجيدة لدراسة حالة العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر سياسيا واجتماعيا .

ومن شعراء هذه المرحلة : محمد سعيد الحبوبي (ت ١٩١٦) ، وقد ترك نظم الشعر في اواخر القرن التاسع عشر ، وهو من اغزل شعراء فترته ، وقد اعجب الناس بهذا الشاعر واحبوا قصائده ورددها كثير من المغنين لانها تتصف بروح رقيقة وتكتنفها اجواء بدوية ، وقد اكثر الشاعر من القصائد الخمرية التي تصف مجالس اللهو والندمان ، وبما ان الشاعر عاش في بيئة دينية وكان عالما دينيا كبيرا فقد قام الجدل حوله وما زال : اكان سكيرا حقا ام انه نظم ما نظم في الخمر تقليدا لقصائد الاقدمين وللطرافة فقط ؟ وقد اكثر هذا الشاعر من نظم الموشحات وما نشر منها في ديوانه استغرق ٧٥ صفحة ، هذا ما عدا ما لم ينشر منها وما ضاع ، وهي تجري على طريقة الموشحات الاندلسية وتقبس اجواءها والقوافي فيها متنوعة واكثرها غزلية او خمرية وتتناول الطبيعة واجواءها الساحرة بالوصف ، واظن ان موشحات الحبوبي بالنسبة لشعر القرن التاسع عشر وبالنسبة للموشحات الاندلسية نفسها جيدة فيها رقة الطبع وعفوية البادية وأخيلة الصحراء . وقد نظم الحبوبي في اغراض الشعر الاخرى الا انه لم يبرز فيها وله ايضا اشعار في التصوف .

ان هؤلاء الشعراء الخمسة الذين اخترتهم من بين عشرات الشعراء في القرن التاسع عشر يمثلون اتجاهات متباينة : فمن المبالغة في المديح عند الاخرس الى ابتعاد الطالقاني عنه ، ومن الاعجاب بالالم عند الحلي الى الكفاح السياسي المر عند عبد الغني جميل ، أما الحبوبي فيمثل الطبيعة المرحة بموشحاته وابياته الغنائية ، واكثر الشعراء ينضوون في هذه الاطر ويدورون فيها وحولها ، وليس هناك من شذ عنها الا في النادر فلا مبرر لدراسة الشعراء الاخرين ، فهم لن يضيفوا الى هذه الاتجاهات شيئا ، ومن هؤلاء الشعراء : عبد الباقي العمري ، والطباطبائي ، وابن كمونة ، والازري ، والعبيدي ، والخضري ، وجعفر الحلي ، وأحمد عزة الفاروقي وغيرهم .

المرحلة الثانية ، الانتقال :

ولا بد للتجديد من مرحلة ثانية بعد مرحلته الاولى ، فلا يمكن للتجديد الصادق والمحاولة الجدية فيه أن تنبع من المرحلة الاولى ، فان هناك امورا ممهدة وجهودا مضنية توطىء الطريق للتجديد وتفسح له المجال الارحب ، وتبعا لسنن الحياة وتطورها وجد من يحمل العبء ويمثل المرحلة الثانية في سبيل شعر عربي رائع مبدع ، والا فما الدور الذي لعبه الزهاوي والرصافي في العراق والبارودي وشوقي في مصر ورهط هؤلاء واولئك ؟ لقد توسط هؤلاء الشعراء ما بين التقليد والتجديد ، لم يقلدوا التقليد الاعمى ولم يرفضوا الرفض البات ، نقلوا الموضوعات الشخصية الضيقة في القرن التاسع عشر الى عالم الناس والمجتمع ، وجرت الاراء الجديدة على السنتهم ومست اشعارهم مسا وثاروا على قيم بعينها اجتماعية وسياسية وفنية ، ولم تعرف ثورتهم ابعادا او اطارا ينتظمها ، الا انهم بالرغم من ذلك اضاءوا الطريق للاجيال القادمة .

بدأ وجه الحياة في العراق يتغير في مطلع القرن العشرين

وخاصة بعد الحرب العالمية الاولى ، وتغير الشعر تبعا لتغير الحياة العامة واخذ يبتعد شيئا فشيئا عن التقليد ، وظهر فريق من الشعراء لا يمكن ان يدرسوا على انهم مقلدون فقط ، ويمكن ان نطلق عليهم انهم شعراء الانتقال من المرحلة الاولى : ذروة التقليد في القرن التاسع عشر ، الى المرحلة الثالثة : محاولات التجديد بعد الحرب العالمية الثانية ، وامتاز بعض هؤلاء الشعراء بنثرية قسم كبير من شعرهم ، فقد اضطروا الى القاء القصائد في مناسبات كثيرة كتوديع شخص او استقبال اخر او افتتاح مدرسة .. الخ ، وشعر المناسبات ذو طابع نثري في اكثر الاحيان وهو عبارة عن خطب موزونة مقفاة ، واهتم هؤلاء الشعراء كل الاهتمام بقضايا مجتمعهم والمشكلات التي جابهها لان البلد كان يعاني انذاك من تركة الفترة المظلمة وكابوس الدولة العثمانية ويتطلع الى المخترعات الحديثة والاراء الوافدة ، ولا شك ان قسما من القصائد الاجتماعية اقرب الى روح النثر منها الى روح الشعر ، لذا فقد كانت مهمة الشعر عندهم ليست فنية فقط انما هي اصلاحية هادفة لاحتياج الوطن الى مصلحين وهو في بدء نهضته الحديثة ، وبما ان هؤلاء الشعراء كانوا يعنون بامور الناس فقد اهملوا تجاربهم الخاصة ولم يكشفوا عنها الا قليلا ، وكانت اكثرية شعرهم حديثا الى الناس ، فقد احب الناس الشعر كثيرا انذاك ومالوا اليه اكثر من النثر ، فلم يحتكر النثر موضوعاته فتسرب قسم منها الى الشعر .

وامتاز هؤلاء الشعراء بانهم طالبوا بالتجديد ، وكانت لهم اراء جديدة ولكنهم لم يفلحوا في تطبيقها ، واعجبوا بالنظريات العلمية المختلفة فنظموها شعرا ودهشوا بالمخترعات الحديثة فوصفوها شعرا وتصوروا ان ذلك تجديد منهم ، الا انهم بالرغم من هذا وذاك اداروا دفة الشعر من موضوعاته التقليدية الضيقة في القرن التاسع عشر ـ التي كانت تدور غالبا حول اشخاص ـ الى عالم الناس والى المجتمع باكمله والى المشكلات التي كانت تجابه البلد انذاك ، وبعملهم هذا وطأوا لنهضة اجتماعية في عالم الشعر ، ثم انهم وجهوا طعنة صميمية الى التزويق اللفظي وجعلوا للمعنى المنزلة الاولى ، وبتحويلهم موضوعات القرن التاسع عشر الى عالم ارحب وبعدم اهتمامهم بالمحسنات البديعية اسدوا خدمة جليلة الى الشعر العربي لا يمكن اغفالها ، لقد افلحوا في ان يقدموا لنا كل طاقاتهم ، لقد نجحوا هنا وفشلوا هناك ولم يكن في امكانهم ان يقلبوا الشعر راسا على عقب ، وما طولبوا بذلك ، انما مثلوا فترة الانتقال من القديم الى الجديد خير تمثيل وكانوا ذوي جراة بحيث قلقوا كثيرا من الافكار السائدة انذاك سواء في عالم الفن او عالم الاصلاح ، فاخذنا حقا نتطلع الى اجواء اكثر اشراقا في عالم الشعر في العراق .

ومن شعراء هذه المرحلة : جميل صدقي الزهاوي (ت ١٩٣٦) . تقول الموسوعة الاسلامية : انه يعود باصله الى خالد بن الوليد ، كان ابوه كرديا وكانت قرية « زهاو » موطن جدته ، واتقن العربية والفارسية والتركية والكردية ، فنحن اذن امام شاعر يمثل حضارات شرقية متشابكة ، فاصله عربي وابوه كردي وجدته فارسية ، عاصر الحكم العثماني ودور الاحتلال والحكم الملكي ، فهل لهذا المزيج الذي كون شخصيته مميزات خاصة ينفرد بها عن بقية الشعراء ؟

زاول الزهاوي وظائف مختلفة متباينة ، والف كتبا كثيرة في موضوعات شتى ، وعني عناية شديدة بتحرير المراة ودافع عن حقوقها ودعا الى السفور ، وقد عزل من وظيفته ولم يخرج من داره اسبوعا خوفا من بطش الرجال ، وقد اخذت اراؤه في تحرير المراة تجد اذانا صاغية عند فريق من الناس فرددوا شعره ودعوا الى مناصرة النساء ، . وكان للدعوة الزهاوي وغيره لتحرير المراة ان حصلت ـ خاصة في المدن الكبيرة ـ سنة بعد سنة على قسم من حقوقها ، واليوم تفخر المراة العراقية في مشاركة الرجل في بناء البلاد خاصة في ميدان التعليم والتطبيب ، الا انه من الطريف ان نعلم ان الزهاوي لم يسمح مطلقا لزوجته ان تسفر وان تجعل من قصائده في تحرير المراة نموذجا حيا سائرا بين الناس ...

وقد بحث الزهاوي شعرا ونثرا كثيرا من الامور العلمية وابتدع اراء خاصة به منها ان الحجر يسقط على الارض لا لجاذبية الارض انما لدفع من السماء ، وهو يؤمن بنظرية داروين ويتعاطى الفلسفة ، ولقد تاثر شعره بالدراسات العلمية والطبيعية والفلكية فاتسم بمعالجة موضوعات بعيدة عن الشعر مثل الجاذبية والروح والجسم والنار والحديد مما هو اقرب الى طبيعة النثر واجدر بالمقالات والبحوث

ان الزهاوي يمثل اتجاها ضم شعراء اولعوا باخضاع بعض الموضوعات النثرية الى الاوزان والقوافي ، ويظهر لنا من شعره انه جاهد جهادا مرا ليظهر بمظهر الفيلسوف ، وقد ردد كثيرا من التعبيرات الفلسفية المعروفة كما انه اقتبس من معاني القرآن الكريم. وقد دعا الزهاوي الى التجديد والثورة على القديم ، وقد ذكر في كثير من اشعاره انه مجدد :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي
ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ويقول :

انا للشعر في العراق اديب مجدد
انا في جنب دجلة عندليب يغرد

الا ان الشاعر ـ رغم انه لم يفلح في ان يكون مجددا ـ تخلص من الاهتمام الشديد بالالفاظ ولم يلجا الى ترقيع شعره بالمحسنات البديعية ، وتجربته الوحيدة المخالفة للمالوف هي نظمه قصيدة بدون قافية نهائية (انظر ديوانه ، القاهرة ١٠٢٤ ، ص ٣١) .

ان الزهاوي ليس مجددا ، فهو لم يبتدع اساليب جديدة تحتذى شكلا ومضمونا ، فهل هو شاعر ام عالم ام فيلسوف ؟ في البحث الذي كتبه عنه كراتشكوفسكي في الموسوعة الاسلامية ورد ان الزهاوي ليس شاعرا وحسب انما هو عالم وفيلسوف ، وانه اعظم شاعر عربي في العراق الحديث ، واذا درسنا اثاره كلها لا نخرج بفلسفة خاصة به ولا بشيء يمكن ان يسمى فلسفة ، فهو قد جاء باراء مختلفة جمعت واقتبست من مظان قديمة وحديثة مختلفة ، فهو لم يكن فيلسوفا ، فهل كان الزهاوي عالما ؟ ان التطرق لبعض النظريات العلمية ونظمها شعرا لا يمكن ان يوحي لنا بان الزهاوي عالم ، فهو لم يدرس العلم ولم يجر التجارب ، ورايه في الجاذبية لا يتفق مع ما اثبته نيوتن من قبل ، فاذا لم يكن الزهاوي اعظم شاعر او عالما او فيلسوفا فما الذي سيبقى لنا منه ؟ انه بلا شك مصلح اجتماعي كبير تناول قضايا اجتماعية كثيرة في شعره وتبناها ودافع عنها وكان البلد في حاجة الى امثال الزهاوي في هذه الميادين لانه كان في بدء نهضته الحديثة ، وهو ايضا مؤرخ ، فشعره ضم كثيرا من المعلومات عن العراق في حقبة طويلة من تاريخه الحديث ، لذا يمكننا ان نعتبر شعره مصدرا مهما في تاريخ العراق الحديث ، وهو الى هذا وذاك يمثل مرحلة لا بد منها لتطور الشعر نحو الجودة والابداع ، اذ لا يمكن ان ينتقل الشعر من التقليد الى الابداع والابتكار وان يتجاوز المحلية الى عالمية ارحب بصورة مفاجئة .

لقد بذل الزهاوي كل جهده وتعب نفسه في سبيل المجتمع والشعر ، ولئن فاته شيء فقد وطأ لغيره ان يجد له آفاقا جديدة ذات عمق وروعة ، لذا فقد كان له دور كبير في عالم النهضة في العراق .

ومن كبار شعراء المرحلة الثانية معروف الرصافي (ت ١٠٤٥) ، كان ذا شهرة واسعة في البلاد العربية وقد اقترن اسمه بالزهاوي ، فقد عاشا فترة واحدة وتناول شعرهما موضوعات متشابهة وحاول كل منهما التجديد ، وكالعادة قام جدال عريض في ايهما احسن من صاحبه . عانى الرصافي في آخريات حياته الفاقة والحرمان

والاهمال وقيل انه اضطر احيانا لبيع السكاير ، وقد عرضت عليه السلطات أن تشتري ديوانه على أن ينظم قصيدة تمدح العائلة المالكة ب ١٠،٠٠٠ دينار فرفض .

كان الرصافي جريئا ، هاجم الحكام بضراوة ، ثم بقي طيلة حياته ضد السلطات الجائرة هاجيا ومحاربا ، والظاهرة البارزة في ديوانه هي ولوعه بالسياسة وحبه الشديد لوصف مظاهر البؤس والشقاء ، ولم تكن للرصافي عقيدة معينة بل كان يحلم بعالم مثالي ، فحث الناس على الخير ، واتخذ أفعال الامر سبيلا الى ذلك ، فبعض قصائده يبدأ ب تنبهوا وتقدموا وانهضوا ، وكان الرصافي سخيا بمواهبه فلم يتوان عن ان ينظم قصيدة في أية مناسبة وأن يلقي شعرا في أي احتفال ، لذا كان قسم من شعره ذا مسحة خطابية ، ولا يقدم شعره السياسي حلولا ، وكان يستمد بعض موضوعاته من واقع الحياة بروح صحفية ، والاكثار من القصائد السياسية . ووصف مشاهد البؤس في شعر الرصافي يفسره لنا ما جاء في وصيته : « كل ما كتبته من نظم او نثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية وانما قصدت به منفعة المجتمع » . فقد هيأ الرصافي نفسه ليكون معلما او مصلحا اجتماعيا واتخذ من الشعر أداة لذلك الاصلاح ونشره بين الناس ، فالشعر من وجهة النظر الاجتماعية ـ لا من وجهة النظر الفنية ـ اداة للاصلاح لان الناس يحبون الشعر ويحفظونه ، فهو سهل التداول ويثير الحماس ويوقد العواطف ، ولان الشاعر توخى الاصلاح فقد شاب قسما من شعره روح نثرية ، وأسهب بعض من درسوا الرصافي في نثرية بعض قصائده ، ففي المقدمة التي كتبها عبد القادر المغربي لديوان الرصافي نجد : « ولو عمدت الى كثير من قصائده وحاولت تحويلها الى مقال من النثر لامكنتك ، ولا تدري حين تسمع قصيدة له أهي نظم منثور أم نثر موزون » . ولقد قال الرصافي نفسه عن شعره :

وأرسلته نظما يروق انسجامه
فيحسبه المصغي لانشاده نثرا

حاول الرصافي ان يبعث الشعر من جديد ، وعاضده في سبيل ذلك زميله الزهاوي الذي جدد في افكاره الادبية ، ولم يحسن التطبيق . ولم يهتم الرصافي بالاسلوب كثيرا وتجنب التزويق اللفظي المتكلف ، ولم يعن الشعر في القرن التاسع عشر بالامور العامة ، اذ كانت موضوعاته فردية ، ففمره الرصافي والزهاوي وزملاؤهما بمشاكل الناس في النصف الاول من القرن العشرين وادخلوه في صلب أدوار المجتمع .

اما شعراء العراق المعاصرون للزهاوي والرصافي فهم ليسوا أقل أو أرفع شانا الا انهم بصورة عامة ـ الا القلة ـ يمثلون تيار الاصلاح والحماسة ، ومن هؤلاء الشعراء : علي الشرقي والكاظمي ورضا الشبيبي ومحمد مهدي البصير واليعقوبي والبناء وغيرهم .

المرحلة الثالثة ، محاولات التجديد :

بدأت المرحلة الثالثة ـ محاولات التجديد ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وكانت امتدادا للمرحلة الاولى ـ ذروة التقليد ، والمرحلة الثانية ـ الانتقال ، الا ان هذه المرحلة الثالثة تعاورتها أمور كثيرة خارجة عن طبيعة العمل الفني ، فما ان بدأت وظهرت حتى شغل الادباء بأمور تافهة. واخذوا يبحثون عمن اخترع هذا اللون الجديد من الشعر ، فعاشوا على هامش الحركة وليس في صميمها ، وتسربت الى محاولات التجديد اراء من الغرب قيل فيها انها تقليد من خارج وقيل فيها انها استفادة من تجارب الانسانية .

هزت الحرب العالمية الثانية هذا الكوكب الارضي وابدلت معالم كثيرة فيه وتهاوت معها اخر قلاع الرومانسية القديمة والحديثة ، وتلفت الناس بعدها ، وفي بلادنا ، يتطلعون الى عوالم جديدة فلم تعد تطرب معازف جبران .

ووجد الشعراء بعد امعان واعادة نظر ان امورا لا علاقة لها بالفن فرضت على الشعر في كثير من الاحيان ، وما عدا النماذج الخالدة فان قسما كبيرا من الشعر كان عملا خارجيا لا ينبع من صميم حياة الشاعر وتجاربه ، وبتغير وجه الحياة وازدياد الثقافة والاتصال بالحضارات الاخرى والاقتباس منها ونشاط حركة الترجمة برزت في العراق اراء تدعو الى تجديد الشعر ، فقد سئم بعض الشعراء من النماذج التقليدية المتكررة في الفترة المظلمة ، ولم يعد الشعر وسيلة للتكسب فاخذ يبتعد عن المديح والخطابة والالفاظ الرنانة والنكت البلاغية .

وبدأ الشعراء يبحثون عن قوالب جديدة وأرادوا ان ينوعوا القوافي ، فالاقدمون ـ خاصة في الاندلس ـ قد فعلوا ما يشبه ذلك ، ولم يلتزم هؤلاء الشعراء بعدد معين من التفعيلات في البيت الواحد ، ولكنهم ما زالوا ينظمون على الاوزان التي استعملها الشاعر الجاهلي ولكن بأسلوب جديد ، وما زالوا يستعملون قوافيه ولكن بترتيب اخر ، فتنويع القوافي وعدد التفعيلات لا يعني تجديدا انما هو تحوير في الشكل ، وما لم يتجاوز الشعر العربي محليته فسيبقى في طور المحاولات ، وبدأ الشعراء العراقيون محاولتهم وكان في مقدمتهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي وكاظم جواد وشاذل طاقة ومحمود المحروق الذي نظم قصيدة حرة في سنة ١٩٤٨ ، وغيرهم . وقد تأثر قسم من الشعراء بالادب الغربي ، الا ان هذا لا يعني انهم ترجموا عنه او قلدوه حرفيا ، ولم يتطور الشعر الحديث تدريجيا وببطء من الشعر العربي القديم انما كان ظاهرة فرضتها الحياة ،نتيجة للتوتر الذي خلفته فيها آثار الحرب العالمية الثانية ، ولقد استفاد الشعراء الجدد من تجارب الاقدمين فحاولوا ان يطوروها على ضوء الاخيلة الجديدة التي بدأت تتراءى لهم.

ان اراء متضاربة حول الشعر الجديد ما زلنا نقرؤها يوما بعد

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
اعطنا حبا	» »	٢٥٠
ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
عاشق من افريقيا	لاحمد الفيتوري	٢٠٠
احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠

يوم تدل على حيوية هذه التجربة وقدرتها على اثارة النقاد بحيث يتصدون لها مؤيدين او محاربين .

ولعل من الخطأ ان نعتقد ان الدعوة لهذا الشعر تضم في انحائها نبذا للشعر القديم وتحطيما له ، ففي الشعر القديم نماذج رائعة ستبقى خالدة ، اما الشعر الجديد فهو رد فعل قوي للتقليد الذي ثابر عليه الشعراء طيلة الفترة المظلمة دون ان ياتوا بجديد ودون ان يفسحوا هم وشركاؤهم لحركة جديدة تثبت جدارتها للحياة .

وليس من حقنا ان نطالب الشعراء بان يسيروا على شكل معين ثابت لا يحيدون عنه وان كان هذا الشكل جديدا ، لان ذلك ينتشل الشاعر من تقييد قديم ليلقيه في تقييد جديد ، وكل جديد لا بد ان يصبح يوما ما قديما ، ان نحصل على شعر حقيقي مبدع ـ وليكن باي شكل ـ خير من ان ندور في مناقشات تافهة لنوجه شعراءنا الى الطرق التي نراها صائبة ناسين ان الموهبة لا تعرف قاعدة او تخطيطا .

وبعد جيل الرواد من هؤلاء الشعراء ظهر شعراء اخرون في مقدمتهم سعدي يوسف ، ومنهم بلند الحيدري ومدني صالح ورزوق فرج رزوق وصالح جواد الطعمة ومحمد جميل شلش ومحمد النقدي وحسب الشيخ جعفر وعصام عبد علي ومحمد سعيد الصكار وحميد سعيد ورشدي العامل وغيرهم .

ولا يمكن لناقد واع ان يصدر حكما قاطعا على انتاج هؤلاء الشعراء ، فهو ما زال في طور التجربة والمحاولة والنماء ، ويعز قسم منهم بداب على رعاية هذه المحاولات واكتشاف عوالم جديدة ، والزمن هو الذي سيبوىء الشعر الجديد المكان الذي يستاهله ، والباب مفتوح لمن يريد ان يجرب ويضيف ويعدل ، والزبد لا يمكن ان يذهب الا جفاء .

ان اصالة هذه المرحلة الثالثة تتمثل بالاخذ بتجارب الماضي والتفاعل مع معطيات الحاضر والاخلاص للمستقبل برؤية نافذة واضحة، والصدق الادبي امر لا بد منه في كل نتاج جديد والا فسيصبح ثوب التجديد مهلهلا . ان التجديد رد فعل قوي لموجة التقليد العارمة ، وهذا لا يبيح للشعراء الجدد ان يغفلوا في انهم يقلدون ـ في بعض انتاجهم ـ المجددين فيعيدون سيرة القرن التاسع عشر باسلوب مستحدث ، فالنفس السيابي واضح في قصائد كثيرة مما يكتب الشعراء هذا اليوم ، وعلى الشعراء الذين يمارسون التجديد ان يقفوا صامدين امام العاصفة ـ بعيدين عن مواطن الاغراء ـ وان يبحثوا عن ذواتهم وان يجدوها فيعبروا عنها تعبيرا صادقا ، والشهرة السريعة آفة ادبنا قديما وحديثا .

ان تقسيم الشعر العراقي الى مراحل زمنية ثلاث لا يضبط جميع الظواهر الشعرية في العراق ، فهناك امور تاتبى هذا التقسيم ، وشعراء لا يمكن دراستهم الا على انفراد وبفصول خاصة فهم ليسوا بمقلدين ولا بمجددين ولم يحاولوا الاصلاح الاجتماعي ، الخ .. ومن هؤلاء الشعراء : محمد مهدي الجواهري الذي ولد خطأ في القرن العشرين ، واحمد الصافي النجفي الشاعر ذو العالم الغريب المستقل والموضوعات التي لم يطرقها سابق ولا لاحق ، وحسين مردان الذي اخضع الشعر للجنس ونزل ضيفا على سجن بغداد من جراء ذلك ، وهناك شعراء اخرون انفردوا بتجارب خاصة لم يشركهم فيها غيرهم ومنهم اكرم الوتري الذي اطل اطلالة مشرقة قصيرة على عالم الشعر في العراق ، وخالد الشواف بمسرحياته الشعرية التاريخية ، وقحطان المدفعي ذو التجربة الشعرية الجريئة والغريبة التي لم يتح لها بعد دراسة تكشف عن معالمها وابعادها .

ان جهود الشعراء والكتاب في كل بلد عربي تسعى وبوعي الى ان ينطلق الشعر العربي من محليته ليتبوأ مكانه اللائق في الشعر العالمي ، وكل دراسة شعرية لا تهدف الى ذلك فاشلة وعقيمة .

بغداد — **جلال الخياط**

لقاء صباح النكسة

« الى اخي الغربي الصامد .. عبد العال الباقوري »

ـ يؤسفني أراك هذا اليوم
وانفجرت دموعنا خناجرا

★★★

كان صباحا اصفرا
جذوره السوداء في نيويورك .. في سيناء
جذوره الخضراء في مبنى الرياسه
وكانت الجموع لم تزل تسد الدرب حزنا وحماسه

★★★

ـ يؤسفني اراك هذا اليوم آتيا مباعدا
يؤسفني ان تطرق الجباه
لو للحظة هنا اسى وكمدا
يسير كل واحد في دربه الذي غدا
اغرب من طريق الموت والحياة .

★★★

يا ايها اليوم الذي انتهى
يا ايها اليوم الذي ابتدا
ـ لا ... لن نمر ابدا

★★★

ـ غدا ... غدا
سوف يطيب لي اراك
غدا ... غدا

★★★

وسار عبد العال صامتا وصامدا

القاهرة — **نصار محمد عبد الله**